مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 9 العدد 1 / جويلية 2023
ص ص 44-54

أسس التّماسك النّصيّ في التّراث اللّغويّ القديم
(النّحو العربيّ نموذجا)

The Foundations of Textual Coherence in the Ancient Linguistic Heritage (Arabic grammar as an example)

فاتح مرزوق
المركز الجامعيّ عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة.
f.merzouk@centre-univ-mila.dz

الاستلام: 2022/10/14 القبول: 2023/05/14 النشر: 2023/07/31

ملخّص:

يعدّ التّماسك النّصيّ من الرّكائز الأساسيّة لبناء النّص؛ بل هو اللّبنة الّتي يقوم عليها التّرابط الجمليّ؛ فيحدث حينها تماسك واتّساق محكم بين مختلف التّراكيب اللغويّة؛ فالنّحو يبنى على العلائق اللّغويّة المستقرة في جوهر الأنساق التّركيبيّة؛ لأنّ الغرض من هذا التّماسك إبراز التّفاعل التخاطبيّ بين عنصري التّواصل؛ أيْ: المتكلّم والسّامع.

وحريّ بالبيان أن نشير إلى أنّ التراكيب اللّغويّة في الدّرس اللّسانيّ الحديث تنحو منحاةَ الدّرس النّحويّ القديم في بناء أصول الانسجام والتماسك؛ بداءة من سيبويه إلى عهد عبد القاهر الجرجانيّ غير أنّ الدّراسات تطوّرت وامتدت لتحدث نُقلة في الدّرس اللغويّ لتنتقل من الجملة إلى الأوسع منها وهو النّص.

ومن هذا المنطلق نروم الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما الأسس العلميّة للتّماسك النّصيّ في الدّرس النّحويّ القديم؟ وما القواعد الّتي أرساها اللّغويّون للرّبط بين التّماسك النّصيّ والتّواصل اللغويّ؟

الكلمات المفتاحية: التّماسك، النّصّ، القرائن، النّحو.

Abstract:

Textual coherence is one of the main pillars for building a text. Rather, it is the building block on which the overall coherence is based; at that time, tight coherence and consistency occurs between the various linguistic structures; Grammar is based on linguistic relationships that are stable in the essence of synthetic patterns. Because the purpose of this coherence is to highlight the communicative interaction between the two elements of communication; that is the speaker and the listener.

It is appropriate to point out that the linguistic structures in the modern linguistic lesson are similar to the old grammatical lesson. in building the foundations of harmony and cohesion; Beginning with Sibawayh to the era of Abd al-Qaher al-Jurjani, however, the studies developed and extended to bring about a shift in the linguistic study to move from the sentence to the broader one, which is the text.

From this point of view, we intend to answer the following problem: What are the scientific bases for textual coherence in the ancient grammar lesson? What are the rules established by linguists to link textual coherence and linguistic communication?

Keywords: coherence, text, evidence, syntax.

1.مقدّمة:

يعدّ التّماسك النّصيّ من الرّكائز الأساسيّة لبناء النّص؛ بل هو اللّبنة الّتي يقوم عليها التّرابط الجمليّ؛ فيحدث تماسكا واتّساقا محكما بين مختلف التّراكيب اللغويّة؛ فالنّحو يبنى على العلائق اللّغويّة المستقرة في جوهر الأنساق التّركيبيّة؛ لأنّ الغرض من هذا التّماسك إبراز التّفاعل التّواصليّ بين عنصري التّواصل؛ أيْ: المتكلّم والسّامع.

وحريّ بالبيان أن نشير إلى أنّ التراكيب اللّغويّة في الدّرس اللّسانيّ الحديث تنحو منحاةَ الدّرس النّحويّ القديم؛ في بناء أصول الانسجام والتماسك؛ بداءة من سيبويه إلى عهد عبد القاهر الجرجانيّ غير أنّ الدّراسات تطوّرت وامتدت لتنتقل من الجملة إلى الأوسع منها وهو النّص.

ومن هذا المنطلق نروم الإجابة عن الإشكالية الآتية: **ما الأسس العلميّة للتّماسك النّصيّ في الدّرس النّحويّ القديم؟ وما القواعد الّتي أرساها اللّغويّون للرّبط بين التّماسك النّصيّ والتّواصل اللغويّ؟**

2. مفهوم النّص:

1.2. المعنى الاصطلاحيّ:

النّص بمعناه الاصطلاحيّ مفهوم حديث في الفكر العربيّ المعاصر، وهو ليس وليد هذا الفكر، وإنّما هو كغيره من مفاهيم كثيرة في شتّى العلوم الحديثة بقول عبد المالك مرتاض: "وقد حاولنا أن نعثر على ذكر اللّفظ في التّراث العربيّ النّقدي فأعجزنا البحث ولم يُفْضِ بنا إلى شيء إلاّ ما ذكر أبو عثمان الجاحظ في مقدّمة كتابه "الحيوان" من أمر الكتابة بمفهوم التّسجيل والتّقييد والتّدوين والتّخليد لا بالمفهوم الحديث للنّص" (محمد الأخضر الصّبيحي، 2008، ص18).

وسأورد تعريفات أوردها (محمد مفتاح) للنّص حَسَب توجهات معرفيّة؛ فهناك تعريف بِنَويّ وآخر نفساني دلاليّ وآخرها خاصّ باجتماعات الأدب... ليخلص إلى تعريف واحد في النّهاية، أمّا هذه التّعريفات فهي:

- مدوّنة كلاميّة: مؤلّفة من كلام؛
- حدثُ: أنّ كلّ نص هو حدث يقع في زمانٍ ومكانٍ معينين؛
- تواصليّ: يهدف إلى توصيل معلومات، ومعارف ونقل تجارب إلى الملتقي؛
- تفاعليّ: أي إقامة علاقات اجتماعيّة بين أفراد المجتمع؛
- مغلق: أي انغلاق سمته الكتابيّة الأيقونة الّتي لها بداية ونهاية؛
- توالديّ: إنّ الحدث اللّغويّ ليس منبثقا من عدم وإنّما هو متولد من أحداث تاريخيّة ونفسيّة ولغويّة وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له. فالنّص إذاً "مدوّنةُ حدثٍ كلاميّ ذي وظائف متعددة" (محمد مفتاح، 1985، ص120).

ويعرّفه (رولان بارت): "إنّه السّطح الظّاهريّ للنّتَاج الأدبيّ، نسيجُ الكلمات المنظومة في التّأليف والمنسقة؛ بحيث تفرض شكلا ثابتا ووحيدا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا" (رولان بارت، 1988، ص89).

ويتّضح ممّا سبق أنّ مصطلح النَّص ذاته يمثل إشكالية معقدّة وكبيرة في النّقد الحديث؛ ذلك لأنّه لم يعد يقتصر على دلالته المَعجميّة

والاصطلاحيّة المعروفة؛ بل راح يكتسب دلالات جديدة مع مصطلحات أخرى.

3.مفهوم لسانيّات النّص: حَظِيت اللّغة منذ القديم بنصيب وافر من الدّراسات من أهم وسائل الاتّصال الّتي يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم وأحدثُ دراسة في هذا الشّأن تعود إلى (زيليغ هاريس) الّذي قدّم منهجا لتحليل الخطاب المترابط؛ حيث استخدم فيه اللّسانيّات الوصفيّة بهدف الوصول إلى اكتشاف بنية النّص (structure of the text) وقصر فيه الدّراسة على الجمل والعلاقات فيما بين أجزاء الجملة الواحدة.

كما يعود الفضل إلى العالم الهولندي "فَان دَيْك/ Dijk "الّذي اعترض في كتابه "جوانب من علم نحو النّص/ Aspects of text grammar" على النحو التّقليديّ من حيث إنّه لا يلبي المطلب الّتي تقتضيها دراسة النّص الأدبي" (ابراهيم خليل، 2007 ص195).

وقد استعمل (فان ديك) مفهوم التّرابط للإشارة إلى علاقة خاصة بين الجمل والانسجام إشارة إلى عدم تأويل الجمل أو القضايا بمعزل عن الجمل والقضايا السّابقة عليها "فالعلاقة بين الجمل محددة باعتبار التّأويلات النّسبيّة" (محمد خطابي، 2006 ص34).

إنّ لسانيّات النّص: "فرع من فروع اللّسانيّات "يُعْنى بدراسة مميّزات النّص من حيث حدُّه وتماسكه ومحتواه الإبلاغيّ التّواصليّ" (أحمد مداس، 2007، ص03)؛ فقد حدّد هذا النّص محاور اللّسانيّات النّصيّة في النُّقاط الآتية:

الحدّ والمفهوم وما يتّصل بهما.

- المحتوى التّواصليّ وما يرافقه من عناصر، ووظائف لغويّة داخل مقام تواصليّ.

- **التّماسك والاتّساق أو ما نصطلح عليه بـ** (النّصيّة) مقابلا للمصطلح الغربيّ (Textualité) تحتل مسألة النّصيّة هذه مكانا مرموقا في البحث اللّسانيّ؛ لأنّها تجري على تحديد الكيفيّات الّتي ينسجم بها النّص/ الخطاب" (أحمد مداس، 2007، ص03) فاللّسانيّات النّصيّة تنطلق من أنّ النّص"بنية نصيّة متماسكة ذات نسق داخلي تربط بين عناصره علاقات منطقيّة ونحويّة ودلاليّة" (محمد الأخضر الصّبيحي، 2008، ص88).

4. التّماسك النّحويّ من الجملة إلى النّص: إنّ المتمعّن في كتب النّحو قديما يلحظ أنّهم لم يذكروا مصطلح النّص. ولكن قد كانت بداية اهتمام النّحاة بالتّماسك في الظّواهر اللّغويّة عند دراستهم للجملة والكلام والقول، فالنّحاة الأوائل درسوا التّراكيب من منطلق الأحكام الّتي تعتري ضوابطها، وتحكم قواعدها، وسنحاول الآن تبيان أسس التّماسك النّصيّ في النّحو/ تبيان أصول الأحكام في إحكام ضوابط الجملة والكلام:

4 .1. بناء الجملة والكلام في نصيّة النّحو: خصّص النّحاة الجملة بالدراسة والبحث، وخاضوا فيها كلّ الخوض؛ فلم يتركوا مسألة إلاّ وقعّدوها، ولا قضيّة إلاّ وفتحوا لها بابا فحكّموها، من الأحكام الّتي وضعوها للجملة وذلك من خلال التّعاريف الّتي أفردوها للجملة والكلام معا.

4 .2. التّركيب والاستقامة أساسا تماسك الجملة: اعتمد النّحاة في ضبط المفهوم

النّحويّ للجملة من منطلق وضع قاعدة التّركيب الأساس للجملة؛ فالمتمعّن لكتب النّحو يلحظ أنّ مفهوم التّماسك النّحويّ للجملة يقوم على أساس التّركيب والإفادة؛ فكلما حصل التّركيب السليم كلما حصلت الإفادة وتمّ المقصود، وهذا ما أشار إليه (الزمخشري) في تعريفه للجملة باسم الكلام قائلا: "والكلام هو المركّب من كلمتين، أُسنِدت إحداهما إلى الأخرى؛ وذاك لا يتأتى إلاّ في اسمين؛ كقولك: (زيدٌ أخوك وبِشرٌ صاحبُك) أو فعلٍ واسمٍ؛ نحو قولك: (ضُرِبَ زَيْدٌ) و(انطلق بَكْرٌ) وتسمّى: الجملة"(جار اللّه الزمخشري، 1990 ص15)

ويتبيّن من قول (الزّمخشري) أنّ مفهوم الجملة عند النّحاة يبنى على أساس: الإسناد، والإسناد في حدّ ذاته يبنى على التّماسك بين عنصري التّفاعل في الجملة؛ أيْ:

- بين الاسم والاسم؛

- الفعل والاسم. وهنا إشارة إلى التّماسك الّذي يربط أجزاء الجملة؛ فلا يمكن أن يتماسك عنصر نحويّ بذاته دون أن يتعلّق بعنصر آخر يأتي من بعده؛ لذا نجد (الزمخشري) يشترط في الكلام/ الجملة التّركيب؛ وهو ذاته متعلّق بأجزاء الجملة.

وممّن ينحو مَنْحَاة (الزمخشري) نجد (ابن جني) حيث اشترط في إحداث التّماسك في معنى الجملة:

-الاستقلاليّة؛

-الإفادة.

وقد أشار لهذا في معرض الحديث عن مفهوم الجملة قائلا: " أمَّا الكلام فكلّ لفظٍ مستقل بنفسه مفيدٍ لمعناه، وهو الّذي يسمّيه النَّحويّون: الجمل؛ نحوُ: زيدٌ أخوك، وقام محمدٌ" (ابن جنّي، د.ت، ص17) هي إشارة مهمّة في اهتمام النّحاة بنصّية الجملة وذلك من حيث التّركيبُ؛ حيث نجدهم يقدّمون تعريفا للجملة مع إعطاء الأمثلة الدّالة على ذلك؛ فلو لحظنا المثال الّذي قدّمه (ابن جنّي) يتبين المغزى من ذلك؛ فقوله: "(زيدٌ أخوك) إنّما يدل على تركيب الجملة الفعليّة؛ من مسند ومسند إليه؛ بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ أي أنّ تركيبها قائم على أساس التّماسك الشّكليّ الخارجيّ للجملة؛ فتركيب الجملة في ظاهرها تركيب سطحيّ ألزمه النّحاة في قاعدة الجملة؛ ثمّ نجدهم في حينها يشترطون الإفادة والاستقلالية.

فالملحوظ في تركيب الجملة أنّها صلحت تركيبا مع استقامتها في المعنى، وهنا يمكن التّماسك في التّراكيب اللّغويّة المختلفة مع مراعاة المقامات والسّياقات المتنوّعة؛ فكلّ تركيب يخضع لسياق معيّن وهذا دليل على التّماسك الّذي سعى إليه النّحاة الأوائل في إرساء قواعدهم النّحويّة.

وممّن سلك هذا السّبيل، وأرساه في بِدَاءَاتِ تأصيله إمام النّحاة (سيبويه) حيث أشار إلى نصيّة الجملة وأسس بنائها من خلال تعريفه للجملة وأنماطها المختلفة في باب وَسَمَهُ بـ:(هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة) حيث يقول: "فمنه مستقيم حسن ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب؛ فأمّا:

المستقيم الحسن؛ فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدا.

وأمّا فأن تنقض أوّل كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس؛

وأمّا المستقيم الكذب؛ فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه؛

وأمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللّفظ في غير موضعه؛ نحو قولك: قد زيدا رأيت وكي زيدا يأتيك. وأشباه هذا؛

وأمّا المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس" (سيبويه، 1988 ص25 فما بعدها). يمكن أن نستنتج من قول (سيبويه) الخصائص النّصيّة الدّقيقة؛ بل السّمات الّتي ينماز بها التّماسك النّصي من لدن النّحاة:

- التّماسك النّصيّ في النّحو لا يقوم على رصف الكلمات فحسب؛ بل لا بدّ من مراعاة الجانب المقاميّ؛ - الاهتمام بالجانب المعنويّ للتّراكيب اللّغويّة، والخصائص النّصيّة؛ لذا نلحظ أنّ (سيبويه) ركز على المعنى؛ ما يستقيم تركيبا ويقبله المعنى؛ فإن صلح التّركيب وغاب المعنى، فلا روح فيه، والعكس فاستقامة المعنى مبنيّة على استقامة التّركيب؛ وهي إشارة إلى القاعدة النّصيّة الّتي أرساها (سيبويه) في بناء أسس التّماسك التّركيبيّ؛ لينتج حينها المعنى المنشود.

وما يدلّ على أهميّة التّماسك النّصيّ -القائم على الخلفية لدى (سيبويه)- هي تلك العلاقة القائمة بين عناصر الإسناد في التّركيب العربيّ؛ حيث يذكر في موضع آخر أهمية التّماسك بين العناصر التّركيبية في باب سمّاه بـ(هذا باب المسند والمسند إليه) إذ يقول: "وهما ما لا يستغني أحدهما عن الآخر ولا يجد المتكلّم منه بدّا؛ فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: (عبد الله أخوك) و(هذا أخوك) ومثل ذلك: يذهب عبد الله، فلا بدّ من الاسم، كما لم يكن للاسم الأوّل بدّ من الآخر في الابتداء، ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: (كان عبد الله منطلقا) و(ليت زيدا منطلق) لأنّ هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده" (سيبويه، 1988 ص23). يتّضح من قول (سيبويه) أنّ التّماسك النّصيّ النّحويّ لا يكتفي بالجانب الشّكليّ فحسب؛ بل لابدّ من إحداث التّعالق القائم بين التّراكيب وأجزاء الجملة؛ وقد عبر عن التّماسك ههنا بـ(البناء) أي: لا يمكن أنْ يستغنيَ عنصر عن عنصر، كما لا يمكن أن يبنى الكلام على الجانب الخارجيّ؛ وقد علّل (سيبويه) عن العلاقة التّماسكيّة التي تربط أجزاء الجملة العربيّة حين قال: (كما لم يكن للاسم الأوّل بدّ من الآخر في الابتداء) وكأن التّماسك في الجملة يحدث تناسقا بين العناصر التّركيبيّة؛ بله المقصد من ورائها والمعنى المراد.

5. التّعليق النّحويّ أساس التّماسك النّصيّ:

الحديث عن التّعليق هو الحديث عن نظريّة النّظم عند (عبد القاهر الجرجاني) هذا العالم الجهبيذ، والمريد الجليل الّذي طوّر أسس وأصول سيبويه؛ حيث أخرج الدّرر الجواهر من الذّهن العربيّ فترجمه في أصول نظريّة (النّحو البلاغيّ) إذ استطاع أن يجمع ما بين التّركيب الشّكليّ والمعنى الباطنيّ الخفيّ للتراكيب اللّغويّة؛ بل إنّه استطاع أن يُبِين عن جمالية وسع التّراكيب اللّغويّة بكلّ أنماطها المختلفة، من خلال مقولته الشهيرة: (النّظم توخّي معاني

النّحو) وهي مقولة تدلّ على انتقال الفكر النّحويّ من الجملة إلى النّص في مفهومه الشّامل؛ أي: أنّ المعاني تتوسع بتوسّع دائرة التّركيب.

5 .1. التّعليق/ التّعلّق أساس التّماسك النّصيّ: ممّا لا يخفى على خاف أنّ (عبد القاهر الجرجاني) (471ه) يعدّ مؤسّس نظريّة النّظم، هذه النّظريّة التي استطاع من خلالها أن يربط بين التّراكيب النّحويّة، ومواقعها من حيث المعاني الدّالة عليها، إيمانا منه بأنّ التّراكيب اللّغويّة هي التّي تسهم في إحداث التّناغم المعنويّ والدّلاليّ، والسّر في ذلك يعود إلى طريقة النّظم، وكأن بالجرجاني يدلّنا على أنّ النّظم بين الحركة الإعرابيّة ومواقعها في التّركيب شبيهة بوضعك اللّفظ المناسب في الموضع المنشود؛ لذا يذكر في مواضع كثيرة علاقة النّحو بالمعنى يشير إلى مسألة النّظم: "اعلم أنْ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الموضع الّذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه الّتي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم الّتي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها" (عبد القاهر الجرجاني، 1366ه، ص81).

إنّ الأساس الأوّل- في نظريّة النّظم- الّذي أرساه (الجرجاني) هو التّعليق الّذي يربط أجزاء الكلم؛ لذا فإنّ المنطلق الّذي انطلق منه الجرجاني في بيان تركيب الكلم. وأجزائه هو "التّعليق/ التّعلّق القائم بينهم؛ فهو يرى أنّ تركيب الكلم أنّه لا يخلو من التّعليق الثّلاثيّ، وكلّ من يعلّق بالآخر؛ حتّى يحدث معنىً مرجوّا، وفي هذا يقول: "والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف وللتّعليق في ما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدّ، وثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل وتعلّق حرف بهما "(عبد القاهر الجرجاني، 1366ه، ص24). والتّرسيمة توضّح القواعد الّتي توصّل إليها (الجرجاني) لبناء نظريّة التّعليق لنظريّة النّظم المبنية على أحكام النّحو وقوانينه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ (الجرجاني) قد اهتدى إلى هذه الأحكام القائمة في التّراكيب النّحويّة من كلام العرب، وهي تشترك في كلّ العلوم، ولا صحّة لحكم من هذه الأحكام إلاّ بهذا التّعليق القائم بين السّلسلة الكلاميّة، وقد صرّح به قائلا: "وكذلك السّبيل في كلّ شيء كان له مدخل في صحّة تعلّق الكلم بعضها، ثمّ إنّا نرى هذه كلّها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بها مشتركا بينهم"(عبد القاهر الجرجاني،1366ه، ص28). يجزم (الجرجاني) بأهميّة التّعليق في الكلام العربيّ، وأن كلامهم كلّه مبنيّ على هذا المبدأ أضف إلى أنّ صحّة الكلام لا تتأتى إلا بتماسك أجزاء الجملة من حيث تركيبها؛ فإذا تماسكت الألفاظ؛ فإنّها ستحدث إبانة عن المعاني المنشودة ومن هنا ينتج عندنا ما يسمّى (النّحو البلاغيّ).

5. 2. دلالة النّظم في التّماسك النّصيّ (النّحو البلاغيّ): من الرّكائز الأساسيّة الّتي رسمها (الجرجاني) في بناء النّظريّة النّحويّة ربط الحركات الإعرابيّة وعلاقتها بالمعاني؛ أيْ: دلالتها الخفيّة؛ فقد رأى أنّ النّظم في الكلم هو أمر أساس في إبانة المعاني؛ بل تحدث أثراً في المعنى ليس فحسب؛ بل إنّها تحدث أثرا في النّفس، وهنا إبداع (عبد القاهر الجرجاني) وذلك في أنّه يرى أنّ النّظم لا يحدث أثرا في المعنى؛ بل إنّه يتعدّاه إلى إثارة النّفس، وفي هذا يقول: "وذلك أنّ نظم الحروف هو توالها في

النّطق وليس نظموا بمقتضى عن معنى ولا النّاظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه... وأمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنّك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب المعاني في النّفس"(عبد القاهر الجرجاني 1366هـ، ص81).

ويرى (الجرجاني) أنّ النّظم إحداث أثر في النّفس والمعنى؛ شريطة أن يكون مرتّبا؛ بله التّأليف والصّياغة، والبناء، والوشي، والتّحبير؛ غير أنّه يشير في موضع آخر لدلالة النّظم، وهو إحداث التّناسق والدّلالة بين الألفاظ. وقد اشترط (الجرجاني) في تعليق الألفاظ وهو الدّلالة؛ أيْ: أنّ الحركة الإعرابيّة ليست بمعزل عن الوظيفة الّتي تؤدّيها؛ بل لابدّ من اقترانها بالغرض والدّلالة الّتي تعتريها، وفي هذا يقول: "وأنّه نظير الصّياغة والتّحبير والتّوفيق والنّقش، وكلّ ما يقصد به التّصوير، وبعد أن كنّا لا نشك في أنّ لا حال للّفظة مع صاحبتها تعبير إذا أنت عزلت دلالتها جانبا، وأيّ مساغ للشكّ في أنّ الألفاظ لا تستحقّ من حيث هي ألفاظ أن تنظم على وجه دون وجه" (عبد القاهر الجرجاني 1366هـ، ص82). يرى (الجرجاني) أنّ النّظم ينتج عن طريق ترتيب الألفاظ ترتيباً خاصّاً، ثمّ ذلك ينتج المعنى المقصود. وإنْ كان المعنى كذلك يخضع للتّرتيب؛ وفي هذا المقام يصرّح: "فإن قيل: النّظم موجود في الألفاظ على كلّ حال ولا سبيل إلى أن يعقل التّرتيب الّذي تزعمه في المعاني، ما لم تنظم الألفاظ، ولم ترتبها على الوجه الخاصّ "(عبد القاهر الجرجاني، 1366هـ، ص83).

ويبدو لأوّل وهلة أنّ الجرجاني يشترط -لدلالة النّظم في الإبانة عن المعاني- ما يأتي:

-تنظيم الألفاظ وترتيبها؛

-التّرتيب الحاصل في المعاني؛

-ومن ثمّ المعنى يستقرّ في النّفس.

-واللّفظ يكون قارًّا في النّطق. لقول الجرجاني: "واعلم أنّ ما ترى أنّه لابدّ منه من ترتّب الألفاظ وتواليها على النّظم الخاصّ، ليس هو الّذي طلبته بالفكر، ولكنّه شيء يقع بسبب الأوّل ضرورة من حيث إنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني؛ فإنّها لا محالة تتبّع المعاني في مواقعها؛ فإذا وجب لمعنى أن يكون أوّلا في النّفس، وجب للّفظ الدّال عليه أن يكون مثله أوّلا في النّطق"(عبد القاهر الجرجاني، 1366هـ، ص84).

ويجزم (عبد القاهر الجرجاني) على أهمية النّظم في إثبات المعنى؛ لأنّ اللّفظ مستكن في النّظم، والنّظم يحيلك إلى آثار المعاني؛ فكان لزاما من بعد ذلك معرفة دلالة اللّفظ؛ لتؤدي معناه، ويحسن نظمه، ويقام ترتيبه؛ لأنّ نهاية المعنى دلالة التّرتيب على أنّ اللّفظ قد أدى وظيفته، يقول (الجرجاني) في نصّ طويل: "وأنّك تتوخّى التّرتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أنْ تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ؛ بل تجدها تترتب لك بحكم أنّها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة لها، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النّفس، علم بمواقع الألفاظ عليها في النّطق"(عبد القاهر الجرجاني، 1366هـ ص86).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ (الجرجاني) ربط الإعراب بالنّظم، ورأى أنّ الإعراب قوامه البناء والتّعليق، وهذه القوامة أساسها إثبات المعنى. وهنا يتبيّن ذوق (الجرجاني) للتّراكيب اللغّويّة وما تخفيه من سرائر في المعاني؛ وهنا إضافة جديدة لتراكيب الجملة، وقد شرح لنا هذا بقوله: "فبنا أن ننظر إلى التّعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم؛ فتجعله فاعلا لفعل أو مفعول، أو تعمد إلى اسمين؛ فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر، وتتبع الاسم اسما على أن يكون الثّاني صفة للأوّل، أو تأكيدا له أو بدلاً منه... أو تتوخّى في كلام؛ لإثبات معنى... من أنّ اللّفظ تبع للمعنى في النّظم وأنّ الكلم تترتب في النّطق؛ بسبب ترتب معانيها في النّفس، وأنّها لو خلت من معانيها؛ حتّى تتجرّد أصواتا وأصداء حروف" (ابن جنّي، د.ت، ص88).

لا شكّ أنّ (الجرجاني) ربط النّظم بالمعاني المستكنة في النّفس؛ فالمتكلّم عندما يحسن نظمه، ويقوى ترتيبه؛ فهذا دلالة على ما يختلج في نفسه، ويأتلج في فكره؛ لأنّ المعاني لها دلالتها النّفسيّة.

6 . أسس التّماسك النّصيّ في أبواب النّحو العربيّ: عمل النّحاة الأوائل على ضبط المادّة اللّغويّة من حيث أحكامها؛ ممّا أدّى لإحداث التّناسق في الأبواب النّحويّة وبخاصّة في ركني الجملة الأساس: الفعليّة والاسميّة؛ فإنّ المتمعّن يلحظ تماسكا قويما بين التّراكيب اللّغويّة الّتي وضعها النّحويّون؛ بل إنّ التّماسك يحدث اتّساقا محكما بين العلائق الّتي تجمع كلّ الأنماط اللّغويّة.

6 .1. تَمَاسُكُ اسْمِيَّةِ الْجُمْلَة: ممّا هو معلوم أنّ تركيب الجملة الاسميّة في العرف النّحويّ يقوم على ركنين رئيسين هما: المبتدأ (المسند إليه) والخبر (المسند). وهما ركنان أساسان بهما تقوم الجملة ويحسن الكلام؛ بل لا مناص من الآخر عن الآخر؛ ومن هنا نلحظ التّماسك القائم بينهما؛ بحيث لا يفتأ ينفك أحدهما عن الآخر، ومن ثَمّ فالنّمط النّحويّ لهذا التّماسك يكون كالآتي:

- ج اسميّة= مبتدأ + خبر؛

- مبتدأ= خبر مفرد (العلمُ نورٌ)؛

- مبتدأ = خبر جملة: العلم (ينور العقول)؛

- مبتدأ = خبر شبه جملة = جار ومجرور+ ظرف (العلم في الصّدور).

ونلحظ أنّ التّماسك النّحويّ في هذه الأنماط لا يخرج عن الأصل التّركيبيّ الّذي وضعه النّحويّون في تقعيد أحكامهم؛ حيث نجد أنّ المبتدأ واحد، والخبر يرد حسب المعنى والسّياق، وهنا يتّحد التّركيب مع المعنى؛ فالّذي يمعن النّظر في الأنماط الّتي ورد فيها الخبر يلحظ أنّها تختلف من حيث التّركيب، وكذا الأمر متعلّق بالمعنى؛ فالإخبار بالفعل ليس ذاته الإخبار بالاسم؛ كون أنّ الفعل يدلّ على الحدوث والاستمراريّة، والعكس حاصلٌ في الاسم الّذي يدلّ على الثّبوت؛ لأنّ: "الأصل في الجملة الدّالة على الحدوث أن يتقدّم الفعل؛ فتقول: (يقوم زيد) فإذا قدّمت (زيدا) كان ذلك لسبب من أسباب التّقديم الّتي ذكرناها؛

كالتّخصيص والاهتمام ونحوها، وأنّ الأصل في الجملة الدّالة على الثّبوت أن تأتيَ بالمبتدأ ثُمّ الخبر فنقول: (زيدٌ قائم) وبهذا اتّضح الفرق بين الخبر المفرد والإخبار بالجملة الفعليّة" (صالح فاضل السّامرائيّ، د.ت، ص171).

وما ينماز به التّماسك النّحويّ عند النّحويّين أنّهم تنبهوا لمراعاة السّياقات المختلفة في الحكم النّحويّ؛ إذ نجدهم يربطون التّماسك التّركيبي بعضه ببعض في مسألة الرّابط بين المبتدأ والخبر الواقع جملة؛ فاشترطوا لذلك شرطا أساسا وهو "أن يكون برابط يجمع المبتدأ والخبر في تقدير الجملة الفعليّة الواقعة خبرا وهذا ما دلّ عليه (ابن جنّي) وهو يعرض شرط المسند إليه الواقع مبتدأ في بداءة الكلام؛ حيث ينبّه أنّه لا يمس كلّ اسم في بداءة الكلام هو مبتدأ، وضرب لنا مثلا بقولنا: (زيداً أخرجتُ) فالملحوظ في الجملة أنّ (زيدا) مقدّم ولكن لا يكون مبتدأ؛ لأنّ الفعل الّذي بعده لم يشمل على رابط يعود عليه وهنا تناسق آخر ما بين الجملة الاسميّة الأساس والجملة الفعليّة من حيث التّركيب، يقول (ابن جنّي): "لو قلت: (زيدا ضربت) لم يرتفع (زيد) بالابتداء؛ لأنّه وإن كان أوّلا لقولك: (ضربت) فليس هو مسند إليه؛ فإذا جئت بضميره فقلت: (زيد ضربته) فحينئذ ارتفع (زيد) بالابتداء؛ لأنّ ضميره في الجملة الّتي بعده، ربط الجملة به وصيّرها خبراً عنه، ومسند إليه" (الصميريّ، 1982، ص107).

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ (ابن جنّي) تناول قضيّة مهمّة في الرّابط الّذي يعود على المبتدأ حال وجود الخبر جملة فعليّة أو اسميّة؛ لأنّ تركيب الجملة كما سبق الذّكر في نمطين اثنين هما:

- ج إ = م + فعل + ضمير (فاعل) + ضمير واقع مفعول به يعود على المبتدأ.

- ج إ = م + فعل (ضمير يعود على المبتدأ).

ونلحظ أنّ تركيب الجملتين فيه تماسك؛ ففي الأولى الضّمير ارتبط بالمفعول به؛ وهو يعود على المبتدأ، وهذا شرط أساس في ورود الخبر جملة فعليّة، وكذا الأمر متعلّق في تركيب الجملة الثّانية، ففيها فعل مستكن؛ أيْ: ضمير يعود على المبتدأ، وهو غير ظاهر، وهنا تبصرة أخرى نلمح فيها تماسكا بين الفاعل والمبتدأ فاعل إذا تقدّم أصبح (مبتدأ) وما هو في الفعل فضمير مستكن يعود عليه.

2.6. التَّمَاسُكُ النَّصِيُّ فِي مُتَمِّمَاتِ الْمَعْنَى الْجُمَلِيِّ: سبقت الإشارة إلى أنّ التّركيب في الجملة العربيّة يقوم على ركنين رئيسين: الاسمية والفعليّة. ولكن نجد أركانا أخرى ليست أساساً في التّركيب الفعليّ، ولكن في المعنى لها دلالة؛ ونقصد ههنا المتمّمات/ المكمّلات أو ما يعرف بـ(الفضلة) ويقصد بها الزيادة؛ أيْ: ما زِيدَ عن المسند والمسند إليه؛ غير أنّنا نشير إلى أنّ التّركيب العربيّ كان دقيقا ومحكما يَعْتَوِرُهُ التّماسك المحكم، وقد راعى النّحاة لهذه المسألة حين معالجتهم للأحكام النّحويّة:

3.6. التّماسك بين الحال والتّمييز: ممّا هو معروف أنّ التّمييز هو إزالة الإبهام عن الجملة الّتي قبله، بله قبوله معنى (من) وقد أشار (صالح فاضل السّامرائي) إلى أنّ "تضمّنه معنى (مِنْ) فليس المقصود أنّه يقبل دخول (مِنْ) عليه فمن التّمييز ما يقبل دخول (مِنْ) كما في نحو قولك: (لله درُّه فارساً) و(لله درّه من فارسٍ) و(هذا ثوبٌ حريراً) و(هذا ثوبٌ من حرير) ومنه

ما لا تدخل عليه (من) نحو (أقبل خمسة عشر رجلا) فلا تقول فيه: (أقبل خمسة عشر من رجل)" (صالح فاضل السّامرائيّ، د.ت، ص270). كما تفطّن النّحاة إلى مسألة العدول في التّمييز؛ أي: أنّه يتحول من الفاعل والمفعول به والمبتدأ؛ فقولنا: (فاح البيتُ عطراً) والأصل (فاح عطر البيت).

إنّ العلماء جعلوا لكلّ شيء علّة؛ بحيث تُبْنى من خلالها أحكاما مبيّنة؛ فالنّكرة أعم وأشمل، والحال زائدة وزيادتها إنّما بُنيت على فائدة وليست سهلة، يقول (المبرّد): "الحال لا تكون إلاّ نكرة؛ لأنّها زيادة في الفائدة، والفائدة في الخبر نكرة؛ لأنّه لو كان معرفة لم يستفد المخاطب ألا ترى أنّك لو أخبرت الإنسان بما يعلمه لم تكن فيه فائدة، وإنّما الفائدة أن تخبره بما لا يعلم" (المبرد، 1994، ص227).

وقول (المبرّد) فيه إشارة إلى تناسق آخر، وهو (الخبر) فالخبر هو الجزء المتمّ الفائدة مع الخبر وقد كان نكرة والمخاطب يجهل الحكم والفائدة؛ لذا كان نكرة ثمّ قوي بالضّمة؛ حتّى يقوى الحكم، وكذا الأمر حاصل في الحال.

وإذا ما بَصُرْنَا في أحكام النّحو نجدها عديدة ومشهورة، وهي أحكام صاغتها الكتب كثيراً، وتناولها النّحاة في إعراب الجمل، وهي مقولة: "الجمل بعد المعارف أحوال، وبعد النّكرات صفات" وهي قاعدة لو أمعنا النّظر فيها نجد فيها تناسقاً عجيباً، وهو تتابع الحال مع الصّفة، وقد يسأل السّائل: ما علاقة الصّفة بالحال؟ فنقول تكون أنّ الصّفة جزء من الموصوف؛ أيْ: أخذ الأحكام ذاتها تذكيرا وتعريضا وتنكيرا وهلمّ جرّاً من ذلك. هذا من جهة أضف إلى الحال لا تكون من نكرة، وإنّما من المعرفة و(المبرّد) يقول: "واعلم أنّ الحال حقّها أن تكون من المعرفة، وكلّ ما جاز أن يكون صفة للنّكرة فهو حال من المعرفة "(فاضل صالح السّامرائيّ، د.ت، ص298).

7. خاتمة: تضمن هذا المقال (التّماسك النّصيّ في الدّرس النّحويّ) هذا الموضوع الّذي يبين عن الأحكام الّتي وضعها النّحويّون في إرساء قواعدهم الّتي تعمل على بناء نظريّة نحويّة نصيّة مبدؤها الأساس والرئيس التّماسك بين الأبواب النّحويّة، وتلك العلائق الّتي تعمل على إحكام القواعد الموضوعة في العرف النّحويّ؛ حيث إنّ العلماء لم يتركوا شاردة إلاّ وقد قعّدوا لها حكما نحويّا يقوم على تماسك بين الأجزاء التّركيبيّة؛ ومن هنا؛ فالنّظريّة النّحويّة النّصيّة إنّما المفاد منها ضبط القاعدة من منطلق إحداث التّماسك القائم بين الأحكام؛ شريطة إيجاد التّماسك المنوط بين التّراكيب.

وهنا نشير إلى أنّ هذا البحث يفتح المجال للبحثة في اتّساق الأبواب النّحويّة من منطلق معالم النّظريّة اللّغويّة؛ لأنّ النّظريّة تبين عن علميّة ودقّة الأحكام الّتي أرساها علماء النّحو؛ بل وتدلّ على الامتداد العلميّ القائم بين القديم والحديث، وبخاصّة في الدّرس النّحويّ؛ لما له من علاقة بين الدّرسات اللّغويّة الحديثة.

7. قائمة المراجع:

المؤلّفات:

1. الصّبيحي محمد الأخضر، (2008)، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، دار العربية للعلوم، لبنان، بيروت

2. مفتاح محمد، (1985)، تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجية التنّاص)، دار التنوير بيروت، لبنان.
3. خليل إبراهيم، (2007)، في اللّسانيّات ونحو النّص، دار المسيرة، عمان، الأردن.
4. خطابي محمد، (2006)، لسانيّات النّص (مدخل إلى انسجام النَّص)، المركز الثقافي العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب.
5. مداس أحمد، (2007)، لسانيّات النّص (نحو منهج لتحليل الخطاب الشّعريّ) عالم الكتب، إربد، الأردن، الحديث.
6. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: محمد عز الدين السّعيدي، (1990) المفصّل في علم اللّغة دار إحياء العلوم، بيروت.
7. أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: محمد علي النّجار، (د.ت)، الخصائص، دار الكتب المصريّة، القاهرة.
8. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب (سيبويه)، تح: عبد السّلام محمد هارون (1988)، الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة.
9. عبد القاهر الجرجاني، (1366ه)، دلائل الإعجاز، دار المنار، مصر.
10. السّامرائي صالح فاضل، (د.ت)، معاني النّحو، شركة العاتك، القاهرة.
11. الصّيمري، تح: علي الدّين فتحي،(1982)، التّبصرة والتّذكرة، دار الفكر، دمشق.
12. محمد بن يزيد أبو العباس الملقّب بالمبرّد، عقيمة محمد عبد الخالق (1994) المقتضب، جمهورية مصر العربيّة، القاهرة.

المقالات:

1. بارت رولان، تر: محمد خيري البقاعي، (1988) نظريّة النّص، مجلة العرب والفكر العالمي، عدد 03، ص89.